قراءة في ضوء المفاتيح السيميائية لرواية اللاز للطاهر وطار

أ – علي رحماني
أ – خضراوي زينب
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

تتربع الرواية الجزائرية في الراهن الثقافي على مكانة مرموقة وتحمل قضـــايا متشـــعبة، وهي منذ طور تكوينها حاملة صوت الأديب وآلام الشعوب التـــي لطالمـــا عانـــت مـــن الاستعمار الأجنبي الذي عمل على طمس هويتها والزج بها في غياهب العدم والـــزوال، وبهذا ذاع صيت الرواية الجزائرية وبلغ كل الأقطار العربية، ومما زاد في شهرتها أنهـــا ترعرعت على أيدي روائيين كبار وعظماء أعطوا لها دفعا قويـــا مـــن هـــؤلاء رشـــيد بوجدرة،ابن هدوقة، واسيني الأعرج، الطاهر وطار وغيرهم .

هذا الأخير الغني عن كل تعريف، فهو علم بارز في الأدب الجزائري والرواية خصوصا لما له من كتابات روائية معروفة على المستوى الوطني والعربي وحتى خارجه ومعظمها تتسم بلمسة من الرمزية .

إذن فبداية السبعينات هي المرحلة التي شهدت القفزة الحقيقية للنهوض بالفن الروائي فـــي الجزائر، حيث ظهرت العديد من الأعمال الروائية والتي نذكر من بينها رواية (الـــلاز)، فقد كانت هذه الرواية مصدر إلهام للعديد من الروائيين الجزائريين– بشكل مباشر أو غير مباشر– وخطت هذه الرواية أولى خطوات التأصيل الحقيقي للنهوض بالخطاب الروائـــي الجزائري وذلك في بحثه عن موضوع كلاسيكي رصين غنـــي بموضـــوعه التـــاريخي المعاصر ومحتشد بالشخوص ومختلف الدلالات السيميائية والوقائع الممكنـــة والمحتملـــة الحدوث، حيث نجد أن الثورة هي الهاجس المركزي الذي يشكل فضاء(اللاز) ويحيل على مرجعية الأحداث .

وتعتبر رواية اللاز أول تجربة روائية للطاهر وطار، وقد صدرت عام 1974، وتقع في 277 صفحة، صدرها بما أطلق عليه كلمة المــؤلف إلى خاتمة عاد من خلالها إلى الحاضر .

وقد عالج– ربما لأول مرة– في هذه الرواية الخلافات والإشكالات التي صاحبت مسيرة الثورة الجزائرية ليخرج لنا هذه الملحمة الروائية التي أعادت النظر في التاريخ بشكل علمي صحيح، حيث وضح خلالها المهمة الأيديولوجية التي يولدها الفن الروائي بطريقة رمزية، ولهذا نرى أنه من الضروري أن نتوقف عند أول مكون يقابلنا في الرواية وهو العنوان لنبرز ما تعلق به من رموز سيميائية نعتبرها المفتاح الذي يحيلنا إلى عالم النص.

1– سيميائية العنوان :

لقد اهتم علم السيمياء sémiologie اهتماما واسعا بالعنونة titrorologie في النصوص الأدبية إذ يعد أداة إجرائية للولوج إلى خبايا النص وكشف أسرار، وإذا ما تساءلنا عن معنى كلمة (اللاز) فإننا نجد « أنه في القديم كان يطلق على الجزء الأدنى من العملة والآن يطلق على العدد المفرد في أوراق اللعب» (1)، ومن هذه العتبة السطحية سأغوص في أعماق البنيات الدلالية العميقة لأستهل خيوطها وتواشجها مع النواة (العنوان) ولا يتم هذا إلا بعد تتبع أحداث الرواية «اللاز»، إن أول ما يشع في تخوم المسافة الدلالية بين العنوان والنص لفظة (البطل)التي تجسدت إشعاعاتها كحجر أساس في المتن الحكائي منذ البداية فالمعنى المجازي للاز هو «البطل في غير لغة قومه أما عندهم فهو اللقيط أو كل أعور يتشاءم منه »(2)

فلفظ اللاز لفظ عاميا محضا، وهو نقل حرفي للفظ الفرنسي (L'as)، ويعني هذا اللفظ في العامية الجزائرية الشخص ذا النزعة الشيطانية، أو الشخص الذي يتطير منه، أما في المعاجم الفرنسية فإنه يدل على الشخص الذي يمتاز بتفوقه في مجال ما، أو الشخص الممزق الثياب أو من كان زري الهيئة، وواضح أن المؤلف آثر هذا العنوان الشعبي لدلالته القوية وسيرورته بين الناس في الجزائر خاصة(3).

فاللاز لم يكن كتلة جامدة، ولم يطرح داخل هذه الرواية جاهزا خاضعا لنمطية أدبية معينة، وليس غريبا أن يسمي وطار روايته بكل تفصيلاتها باللاز مع أن حضور زيدان كان أكثر بكثير من حضور اللاز، فالعنوان لم يكن عبثيا أبدا(4) وقد تعمد المؤلف وضعه حيث ظل متمسكا بحاسته المتشككة في الأيديولوجية الماركسية وشرعية استمرارها

وتواصلها، سواء داخل جبهة التحرير أثناء الثورة أو بعد الاستقلال، وبما أن ممثل هذا الحزب –زيدان– يعدم في آخر الرواية إلا أنه يترك لنا من رماد تجربته ميراثا غير شرعيا يواصل سير قطار هذا الحزب وهو (اللاز) (5)، وكان الكاتب يريد أن يقول بأن اللاز رغم فقدانه لوعيه – في آخر الرواية– إلا أنه سيظل المشعل الذي يعمل على نشر الشيوعية والدفاع عنها، وربما لهذا السبب اختاره المؤلف دون غيره من الشخصيات ليكون عنوانا لروايته هذه .

2–سيمياء الشخصيات sémiologie des personnages :

حظيت الشخصية باهتمام الدراسات النقدية الحديثة، ولا سيما تلك الدراسات التي اهتمت بتحليل الأعمال السردية الحديثة باعتبار الشخصية مكونا سرديا فاعلا ومتفاعلا ضمن حيز الخطاب السردي لما تضفيه على النص من نبضية وحركية، ولقد تعددت شخصيات رواية اللاز وأخذت أبعاد مختلفة فنجد :

أ–**اللاز**: وهو الشخصية التي عنون بها الكاتب روايته وقد جاءت عنيدة متمردة منبوذة اجتماعيا، وقد اعتبره المؤلف من أهم الشخصيات في الرواية إن لم يكن يعتبره أهم شخصية على الإطلاق، وربما يقصد به شيئا عميقا ذا دلالات بعيدة وهذا ما رمز إليه من خلال مواقف معينة، اتخذها اللاز أو من خلال أقوال معارفه، فاللاز في نظرنا هو الشعب الشقي الذي طالما بحث عن نفسه قبل الفاتح من نوفمبر ووجدها بعد هذا التاريخ في بطولة فريدة من نوعها (6)، وزيدان –أبوه– نفسه يرى فيه هذه الدلالة، فيقول بصدد تحديد شخصيته«أنه ابن جميع الناس، ابن ذلك الزمن، ابن ماضينا كله » (7)، ويؤكد في غير مكان من الرواية «انه ابن الشعب برمته» (8).

و بذلك يكون اللاز من منظور هذا النص الروائي رمزا للشعب الجزائري وضياعه طوال ارداح من الزمن (9)، وبهذا نقول أن اللاز ليس شخصية بسيطة بل هو شخصية ذات دلالة مزدوجة، فمن جهة نجده يدل –كما سبق القول– على هذا الشعب الذي طالما عانى الحرمان، ونبذ من طرف الإدارة الاستعمارية وأعوانها و لا يدل بهذا الجانب من شخصيته على كل الشعب الجزائري، بل يدل على طائفة معينة من هذا الشعب وهي الطائفة التي التحقت بالثورة دون حساب لأن ظروفها الحياتية كانت تفرض عليها ذلك، ومن جهة ثانية تدل شخصية اللاز على هذه النشأة الشقية التي نشأها كثير من أولاد الجزائر في هذه الفترة، وعلى هذه التقاليد المحافظة التي كانت ترفض الأولاد الذين ينشئون هذه النشأة المجهولة وتنبذهم من المجتمع دونما رحمة ولا شفقة (10). ونلمس

ذلك في الحوار الداخلي الذي دار في ذهن زيدان حيث يقول : «واللاز؟ آه، ابن خطيئتي وزناي... فأنجبناك شرارة طائشة، ولعنة صارخة... فيك بذور كل هؤلاء، اللاز... بذور كل الحياة... »(11)، وفي هذه الفقرة نجد الكاتب ينحرف بهذه الشخصية ليجعلها موطنا لتأويلات شتى، ونكتفي منها بالأقرب إلى الواقع، وهو اعتبار هذه الشخصية تعبيرا عن قوة الضغط الاستعماري، وشدة الغليان الشعبي وتأزمه المادي و النفسي في ظروف جائرة لا رحمة فيها (12).

فاللاز يرمز إلى الثورة والشعب لذلك نجده اختار طريق التمرد دون تأثير خارجي من أحد، وكان يمثل التعبير الصحيح عن الشعب بكل تطلعاته وطموحاته، كما جاء على لسان قدور متسائلا عن هوية اللاز «ترى من يكون أبوه؟ ... لا شك أنه ابن جميع الأشقياء »(13).

كما نجده يرمز إلى الانقطاع مع الماضي ومع زيدان، ومع الحياة وذلك بدخوله مرحلة الذهول وفقدان الوعي التي آل إليها (14).

ب–**زيدان** : إذا أردنا البحث عن رمزية زيدان في هذه الرواية فإننا نجده يمثل صورة المناضل العقائدي الحامل لقناعات السياسة الصارمة، فهو الشخصية الممثلة للعقيدة الشيوعية، وقد بدت هذه الشخصية وكأنها مفصولة عن القوى الدافعة الحقيقية في عصرها، وبذالك استحال انسجامها مع محيطها، وتحولت إلى مرآة للعجز القاصر عن إدراك حركة الواقع التاريخي حيث ظهرت هذه الشخصية أحادية الجانب تسير فكرة وحيدة لا تحيد عنها ولا تتطور بل تخضع لتخطيط المؤلف الصارم ولرؤية الفكرية والسياسة لذلك فقدت هذه الشخصية حيوية الحركة والمعاناة والإقناع (15). فزيدان هو رمز لتلك الشريحة من المثقفين المقبولين في الأطر الحزبية الذين يملكون قناعات غير معلنة وهي الشك في كفاءة وجدوى الانضمام إلى جبهة التحرير، كما يرمز إلى الشيوعي الذي يفضل الموت على الانسلاخ عن مبادئه التي يؤمن بها، وبهذا يكون رمزا للتضحية والتمسك بالرأي رغم ما تعرض له من عذاب، ومن خلال هذا التصوير الذي خص به الكاتب هذه الشخصية نشعر وكأنه يعبر عن أرائه ومبادئه هو ذاته، ومن هنا نقتنع أن الكاتب ذو آراء شيوعية دون منازع، وزيدان رمز للإنسان الثوري الملتزم والمرتبط بقضيته، كما نجده يمثل التيار الذي يشوش على البرجوازية التي يمثلها في هذه الرواية قدور بن الربيعي (16).

ج– **بعطوش:** هذه الشخصية تعتبر رمزا لسخرية القدر، حيث تحول من خائن عربيد خطير يشي بالمناضلين والمواطنين ويغتصب الأعراض حتى المحارم – ضاجع

خالته – إلى ثوري (مجاهد) على رأس وحدة خلفا لزيدان نفسه، ويدخل تحت سلطته الذين سبقوه إلى حمل السلاح من قريته وفي مقدمتهم قدور و حمو، حيث أصبح بعطوش ذا نفوذ كبير بعد الاستقلال يتودد إليه حمو ذاته (17)، ونجد ذلك في «بلغني أن بعطوش سيأتي من العاصمة هذا الأسبوع، قرر أن يختن ابنه هنا، الاتكال عليه وعلى ربي»(18). كما قدم لنا وطارشخصية بعطوش كرمز للتناقضات الداخلية للسلوك الإنساني وما تحمله من تشويهات عميقة، وهذا لتأكيد حالة الإنشطار النفسي، والتمزق الذي تعيشه الذات المحبطة في مواجهة مصيرها وخياراتها، فرغم كل ما قام به بعطوش من خيانة وانتهاك المحارم إلا أنه التحق – كما سبق القول – بالثوار بعد أن قام بعملية انتفاضية كبيرة ضد الثكنة، كما يمكن أن يكون الكاتب قد وظفه ليرمز إلى نهاية معينة لشريحة سياسية بصدد الاحتضار وبزوغ فجر شريحة أخرى يمثلها بعطوش، هذا الأخير الذي أصبح فيما بعد قائدا كبيرا، كما يمكن أن يرمز إلى أن الاستعمار لم يستطع إطفاء جذوة الوطنية في نفوس بعض الشخصيات رغم ما ارتكبه من أعمال تنافي الأخلاق و يأباها الشعب (19).

د– **حيزية:** وهي روح رواية اللاز وتمثل قرابة الدم بالنسبة لبعطوش، ووظفها الروائي في هذه الرواية لترمز إلى ماضي يجب أن ينتهي، حيث أن هذه الشخصية السلبية لا نراها تقاوم ابن أختها عندما اغتصبها، لا في المرة الأولى، ولا في الثانية بل نجدها شبه مختلة ظلت عارية في مكان واحد، كما ترمز إلى جزائر الماضي التي ظلت تنتظر أن يخلصها شخص ما من أتعابها الروحية وآلامها، لتحل محلها جزائر جديدة ونظن أن هذا ما فعله بعطوش، حيث قتل فيها ماضيه كله وقضى على آخر خيوط تشده إلى الحاضر وهو الضابط الفرنسي، وارتمى في أحضان حمام جديد تطهر فيه من كل أخطاء وآثام الماضي (20).

والطاهر وطار يقول أن المرأة بالنسبة إليه رمز، حيث تأتي في القصة أو الرواية لا لتمارس الجنس أو لتنجب الأطفال، أو لتقوم بدورها الاعتيادي الروتيني الذي يظن البعض أنها خلقت له، ولكن توظف لترمز إلى قضية، إلى مثل أعلى، إلى كائن لطيف رقيق يحس بالحرمان أكثر مما يحس به الرجل(21).

3 – سيمياء المثل :

تردد الرواية«اللاز» ستة عشر مثلا شعبيا قامت بدورها في تطوير الحدث الروائي وفي الكشف عن ذهنيات الشخصيات، وفي اغناء التجربة الحياتية لأفراد الرواية، وفي الدلالة على البيئة المحلية، وقد اختار الكاتب من بين هذه الأمثال مثلا بارزا وهو«ما يبقى في

الواد غير أحجاره» ليحمله معنى أساسيا وخاصا أراد أن يرسله للقارئ عن طريق فنه الروائي، وقد بدأت الرواية واللاز يردد المثل –وهو فاقد عقله– وانتهت وهو يردده وقد جاء هذا المثل أحيانا للدلالة على مقتضى الحال، وأحيانا أخرى ككلمة سر بين الثوار ويعني هذا المثل في الحياة اليومية بقاء الشيء الصالح أو ما هو حق وزوال الباطل، وقد سمته إحدى الشخصيات (الصح)«الصح، الصح، لا يبقى في البلاد غير الصح »(22). وهو الشيء الصالح عند وطار ويتمثل في قضية النضال والثورة المستمرة، ليقرر لنا بأن التاريخ لا يعود إلى الوراء وأن قضية النضال والثورة هي الرابحة والزيف الرجعي هو الخاسر في النهاية رغم بريق النصر الظاهر(23)، أي أن الاتجاه الذي يمثله في هذه الرواية(الشيخ) سيخسر في النهاية رغم كل ما قدمه من نجاح يتمثل في إعدام ممثل الشيوعية (زيدان) إلا أن مسيرة الشيوعية ستبقى متواصلة لتكملة كل طموحاتها، وهذا ما سيقوم به الموروث الغير شرعي لزيدان وهو(اللاز).

– الطاهر وطار، رواية اللاز، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر، 1981، ص:120.
2– عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1967، ص:10، 11.
3–واسيني الأعرج، الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص:49.
4– إدريس بودیبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000، ص:73.
5–محمد مصايف، الرواية العربية الحديثة بين الواقعية والإلتزام، الدار العربية للكتـــاب، 1983، ص: 30 .
6– الطاهر وطار،اللاز، ص: 103.
7– م، ن، ص: 164 .
8– عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ص:55.
9– محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص: 30.
10– الطاهر وطار،اللاز، ص: 164.
11– عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص:287.
12– الطاهر وطار،اللاز، ص: 53.
13– إدريس بودیبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ص: 74.
14– عطية أحمد محمد، الرواية السياسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1981، ص:120.
15– عبد العالي رزاقي، حوار مع الطاهر وطار، مجلـــة الجيـــل، ع 18، دار الجيـــل، بيروت، 1989، ص: 87.
16– ينظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص: 288.
17– الطاهر وطار،اللاز، ص: 67.
18– ينظر: إدريس بودیبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ص: 67،68 .
19– عبد العالي رزاقي، حوار مع الطاهر وطار، مجلة الجيل، ص:90.
20– م، ن، ص: 91 .

22– الطاهر وطار،اللاز، ص: 64.

23– ينظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص: 164.